مجلة دراسات في سيكولوجية الانحراف
مجلة علمية دولية نصف سنوية ISSN :2602- 554X EISSN :2773-2568
المجلد :08 العدد :01 السنة : 2023 ص- ص : 305-324

حول مقاربة نفسية تحليلية إجتماعية للسلوك الإجرامي

Around A social psychoanalytic approach to criminal behaviour

يمينة غسيري *
مخبر الدراسات النفسية والاجتماعية
جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر.
yamina.ghaciri@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2023/01/18 تاريخ القبول: 2023/04/18

ملخص:

تهدف هذه الورقة العلمية إلى التعرف على مجموع العوامل والخلفيات السببية الكامنة وراء ارتكاب السلوك الإجرامي في أعلى صوره العدوانية، والمتمثلة في جريمة القتل العمد، والتي قد تصل أحيانًا إلى الجاني إلى درجة اللذة في ارتكاب السلوك الإجرامي. القتل، وهو ما يسمى في التحليل النفسي "سلوك السادي. حيث تلقي هذه الدراسة النفسية الضوء على سيكولوجية المجرم وكيف يوظف الطاقة النفسية في المواقف الاجتماعية من خلال وصف تحليلي نفسي اجتماعي لعينة من السلوكيات المنبثقة عن مرتكبي جرائم القتل والعنف المتعمد.."

للوصول في نهاية هذه الدراسة إلى التعرف على بعض مصادر هذه المعضلة والتي من شأنها أن توفر بعض النتائج التي يمكن للممارسين في هذا المجال الاستفادة منها من حيث الوقاية أو العلاج.

الكلمات المفتاحية:

الجريمة؛ الإجرام؛ الانحراف؛ القتل؛ السلوك الإجرامي.

Abstract:

This scientific paper aims to identify the sum of the causal factors and backgrounds behind the commission of criminal behavior in its highest aggressive form, which is represented by the crime of premeditated murder, which may sometimes reach the perpetrator to the point of pleasure in committing criminal behavior. Murder, which in psychoanalysis is called" sadistic behavior". Where this psychological study sheds light on the psychology of the criminal and how he employs psychological energy in social situations through an analytical psychosocial description of a sample of behaviors emanating from the perpetrators of murder and intentional violence.

To reach at the end of this study to identify some of the sources of this dilemma that would provide some results that practitioners in this field can benefit from in terms of prevention or treatment.

Keywords:

crime; criminality; deviation; the kill; criminal behavior .

* المؤلف المرسل

مقدمة:

لا شك أن الباحثين في مختلف العلوم الاجتماعية يربطون التغيرات في معدل نسبة الجريمة بالتغيرات في التنظيم الاجتماعي بما يحدث فيه من تحولات في نظامه وثقافته الاجتماعية، ولذلك فهم يربطون معدلات الانحراف عموما والجريمة خصوصا ببعض المتغيرات والتي منها عملية الحراك الاجتماعي مثلا والصراع الثقافي والتماسك والضبط الاجتماعيين، بالإضافة الى الجوانب السياسية والاقتصادية والديمغرافية وغيرها، كما يربطون بين الجريمة والانحراف والتفاعل الذي يتم بين الأفراد داخل البناء الاجتماعي الذي يعد المحك الحقيقي لجعل الفرد جانحا أو سويا، وكل ذلك لا يكاد يخرج عن اطار النظريات الاجتماعية الأساسية في علم الإجتماع و علم النفس الإجتماعي.

لقد إستهل جان جاك روسو كتابه المشهور إميل بجملة تلخص فلسفته كلها: "ليس فيما يخرج من يد الخالق إلا الخير، ويفسد كل شيء بين أيدي البشر". وما أراد قوله هو أن مصدر الشر يكمن في المجتمع. ينطوي هذا القول على شيء من الصواب، وتزداد قيمته عندما يتم نزع طابع التعميم عن مضمونه من خلال وضعه في سياق معين. يمكن لبنية المجتمع المنظم بشكل سيء أن تولد مشاعر الحقد والكراهية والبغضاء في النفوس، وأن تتسبب في انتشار الفساد على مختلف المستويات والأصعدة، وتؤدي آليات البنية الإجتماعية والنفسية المختلة إلى إعادة إنتاج الثقافة الفاسدة والمفسدة عبر الأجيال. لعل هذا هو ما أشارت إليه كثير من الاتجاهات النظرية في تفسير جذور الفعل الإنحرافي والميل والنزوع إلى العنف والإزاحة والإزهاق والشر ومنهم الباحث (أحمد أغبال في دراسته المعنونة ب "جذور الشر) سنة 2011.

إضافة إلى ما سبق ذكره، فإن واقع ارتكاب جريمة القتل بصورة خاصة وإستثنائيته وإن حدث أن اجتمعت جملة من العوامل الدافعة والمساعدة لإتيانه، فإن هذا النوع من السلوك المنحرف يتطلب في حالة السلامة العقلية لمرتكبه قدرا لا يستهان به من الرغبة والطاقة وإرادة القيام بالفعل، وهذا ما يضعنا أمام حالة استفهام كبيرة حول طبيعة التوظيفات النفسية للطاقة النفسية لدى مرتكب جريمة القتل. هذا من جهة أولى.

من جهة ثانية، وحيث أن السلوك الإجرامي يرتبط تفسيره الشامل بانتهاك واختراق للمعيار المتقرر لدى الفرد والمجتمع بتنظيميته للحياة التي تضمن العيش المستقر ضمن تنظيم على درجة من الإحكام عالية أو مقبولة على أقل تقدير، فإن اتخاذ الفرد لسلوك إجرامي ما، أو لجرم القتل تحديدا كفعل أو كرد فعل للاستجابة في موقف ما قد لا يتطلب منه كل هذه الكمية من طاقة العنف

والعدوان والتدمير ضد الآخر وكل هذه الدرجة الشديدة من الاختراق للمعيار من ناحية أخرى يبحث بدوره عن إجابة. وهو ما يشكل صميم موضوع هذا المقال.

1. الاشكالية :

يشكل السلوك الإجرامي من منظور نفسي اجتماعي تعبيرا عن اختلال في قدرة الفرد على التكيف والتوافق السوي مع مطالب الموقف، وإذا استثنينا من هذا القول التوجه نحو الذات بسلوك التدمير والإقصاء كما يحدث في حالة الانتحار، فإن مختلف هذه الاختلالات ستطال علاقة الفرد مع الموجودات في بيئته من أفراد وممتلكات. لكن إذا ما تم تخصيص نوع معين من السلوك الاجرامي متمثلا في جريمة القتل أو ازهاق وجود شخص أو أشخاص بطريقة قصدية و عمدية، فنحن أمام وضعية تدل على مستوى متقدم من الاختلال و اللاتكيف للقائم بهذا السلوك مع مطالب الموقف الاجتماعي، هذا المستوى من الاختلال وإن ساهمت في إحداثه طائفة من العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية... بمختلف ما يطرأ عليها من تغيرات وتحولات وصراعات حسب ما ذهبت إليه عدد من النظريات العلمية والاتجاهات الفكرية في تفسير السلوك المنحرف والاجرامي، مضافة إلى العوامل الوراثية والبيولوجية المفسرة للجريمة والبنية الجسمية للمجرم، فإن جل هذه العوامل دون معرفة لسيرورات تفاعلها مع المعيش النفسي الداخلي للفرد وللأفراد ذوي القابلية والاستعداد النفسي للانحراف والعنف والاجرام لا يسمح بإعطاء صورة شاملة ومتكاملة لتفسير آلية حدوث الجريمة، وبالتالي في وضع آلية شاملة ومتكاملة واستراتيجيات ناجعة للوقاية والدفاع والعلاج بالنسبة لهذه الظاهرة. حيث أن التوظيف السيكوديناميي والبيشخصي لآليات الدفاع ونتاجات العلاقات الوالدية المبكرة التي تؤسس للتنظيم النفسي والعقلي والبنية الدفاعية وتركيبة شخصية الفرد هي محصلات تشكل منطلقات نفسية لتفسير كيفيات تعاطي الفرد مع المعيار الاجتماعي والتي تشكل محظ حقيقة السلوك السوي من المنحرف هذا من جهة. ومن جهة ثانية لنتبين طبيعة هذه التركيبة النفسية والبنية الشخصية التي تمتلك القدرة وهذا المستوى من الجلد النفسي الذي لا يمكن القاتل من القيام بجريمة القتل وحسب، ولكن في حالات معينة ليتدرج في مستويات الشعور بالهدوء والراحة والتلذذ بممارسة فعل القتل في صور مختلفة من الممارسات الشاذة. بناء على ما سبق جاءت دراستنا هذه بغية تسليط الضوء على عوامل وأسباب ارتكاب السلوك الإجرامي (جرائم القتل العمدي)، بالإعتماد على المنهج الوصفي التحليلي لسيكولوجية المجرم بوصف وتحليل نفسي اجتماعي لعينة من السلوكيات المنبثقة عن مرتكبي جرائم القتل والعنف المتعمد وكيفية توظيف المجرم للطاقة النفسية في المواقف

الاجتماعية، واقتراح جملة من التوصيات التي من شانها المساهمة في الوقاية والتصدي وردع هذه النوع من الأفعال الإجرامية انطلاقا من العناصر التالية:

مفهوم السيكولوجي للسلوك الإجرامي (القتل)

مقاربة التحليل النفسي للجريمة والسلوك الإجرامي.

المقاربة النفسية الإجتماعية للجريمة والسلوك الإجرامي.

توظيفات الطاقة النفسية لمرتكبي وذوي الإستعداد للجريمة.

الصراع في العلاقات الوالدية وبروز توظيفات طاقة العدوان والتدمير.

2. **المفهوم السيكولوجي للسلوك الإجرامي (القتل):**

نبدأ تحليل الآليات النفسية لحدوث الجريمة من التعريف النفسي لها.

1.2 تعريف الجريمة:

يمكن تعريف الجريمة مبدئيا من زاوية سيكولوجية على أنها إشباع لغريزة إنسانية بطريقه شاذه لا يقوم بها الفرد العادي في إرضاء الغريزة نفسها. هذا الشذوذ في طريقة الإشباع أو صورته ينم عن وجود علة أو أكثر في الصحة النفسية أولا، وينم ثانيا عن حدوث إنهيار في القيم والغرائز السامية. باعتبار السلوك الإنساني المسلك أو حالة النشاط أو الفعل المعتمدة، والتي تتوسط الدافع (الحاجة) والغاية (النتيجة وهي تحقق الإشباع).

كما تعرف الجريمة نفسيا كذلك بأنها محصلة أو نتاج للصراع بين غريزة الذات وما قد تحتويه بما في ذلك نزعة التفوق، وبين الشعور الاجتماعي وكل ما قد يرتبط به من معايير وضوابط. باعتبار السلوك الإنساني من هذه الزاوية محصلة نشاط دينامي لأركان الجهاز النفسي الأساسية المتمثلة في قوى الهو والأنا والأنا الأعلى.

وبهذا فالجريمة تعد إنعكاسا لما تحتويه شخصية الفرد من اختلال أو اضطراب أو مرض نفسي يعبر عن صراعات وجدانية إنفعالية لا شعورية عادة أو أحيانا قد لا يعرف الفرد صلتها بالأعراض التي يعاني منها رغم إمتلاكه لإرادة القيام بها أو تركه.

2.2 تعريف المجرم:

بالنظر إلى ما سبق فالمجرمون هم الاشخاص الذين يعانون من اضطرابات أو اختلالات في الشخصية أو السمة. والناجمة عن النمو والارتقاء والانفصال اللاسوي وللعلاقات الغير مرضية والصعبة بين (الهو والأنا والأنا العليا). وهي الاسباب الرئيسية لسلوكهم الاجرامي هذا.

كما يمكن تعريف المجرم كذلك على أنه شخص يعاني قصورا في التوفيق بين غرائزه وميوله الفطرية وبين مقتضيات البيئة الخارجية التي يعيش فيها.

3.2 تعريف السلوك الاجرامي:

أما إذا جئنا لوصف السلوك الإجرامي، فإن هذا السلوك يعرف على أنه سلوك معاد للمجتمع يتصف باللاسواء واللاإجتماعية وبالإندفاعية الحرة لغريزة التدمير دون توفر للسبب الموضوعي والمبرر الإجتماعي المقبول لذلك.

وقد عرف ألِكسوندر السلوك الاجرامي بأنه ناتج عن الاضطراب في قوى الشخصية الثلاث في تكيفها مع ما يسود في المجتمع من قانون أخلاقي. (داود، ب س)

كما يعبر السلوك الإجرامي على فعل يهدف إلى إشباع غريزة إنسانية، وصادف هذا الإشباع خلل كمي أو شذوذ كيفي في هذه الغريزة انهارت معه الغرائز السامية والخشية من القانون.

4.2 تعريف جريمة القتل:

يشكل السلوك الإجرامي من منظور نفسي اجتماعي تعبيرا عن اختلال في قدرة الفرد على التكيف والتوافق السوي مع مطالب الموقف، وإذا استثنينا من هذا القول التوجه نحو الذات بسلوك التدمير والإقصاء كما يحدث في حالة الانتحار، فإن مختلف هذه الاختلالات ستطال علاقة الفرد مع الموجودات في بيئته من أفراد وممتلكات. لكن إذا ما تم تخصيص نوع معين من السلوك الاجرامي متمثلا في جريمة القتل أو ازهاق وجود شخص أو أشخاص بطريقة قصدية وعمدية، فنحن أمام وضعية تدل على مستوى متقدم من الاختلال واللاتكيف للقائم بهذا السلوك مع مطالب الموقف الاجتماعي.

ويعرف سلوك القتل كسلوك إجرامي بأنه إزهاق روح إنسان حي من طرف إنسان آخر يتمتع بالإرادة وحرية الإختيار متعمدا مع سبق الإصرار والترصد، أو الإعتداء الذي يؤدي إلى الوفاة (فتيحة، 2013).

وانطلاقا من التعاريف السابقة فإن ارتكاب سلوك جرم القتل لا يخلو بمختلف أشكاله ودرجات العنف المميزة له من وجود خلل شديد وواضح في التفاعل أو في الفعل أو الاستجابة السلوكية التكيفية السوية للقاتل حدثت نتيجة تفاعل بين التركيبة النفسية لمرتكب السلوك ومعطيات الموقف الإجتماعي فأنتجت هذا السلوك الشاذ وغير المقبول إجتماعيا وبشكل أدق المجرّم إجتماعيا وقانونيا. وهذا ما دفعنا لمحاولة تفكيك كل منطق ذهني ونفسي يقود إلى إعطاء تفسير ذو درجة من الإقناع

لكيفية حدوث الجريمة، وللتركيبة النفسية التي تميز مرتكب جريمة القتل العمدي أو التركيبة النفسية ذات الاستعداد للجريمة.

3 مقاربة التحليل النفسي للجريمة والسلوك الإجرامي:

سيغموند فرويد المحلل النفساني الذي كان يعمل طبيبا حاول تفسير الجريمة والجنوح مركزا على أن الانسان يبدأ حياته بغريزتين أساسيتين: غريزة الجنس وغريزة الموت، إذ تمثل الأولى غريزة الحب وما يحويه من عواطف وانفعالات وميول نحو الجنس الآخر، بينما تتمثل الثانية في غريزة الكره والعدوان، ومنها تظهر السلوكات الشاذة واللاإجتماعية كالإنحراف والجريمة، حيث يقدم لنا فرويد العدوانية بأنها ميل أصيل في الطبيعة الإنسانية.

ولكي يبرهن فرويد على صدق هذا الافتراض، فقد قسم النفس الانسانية الى مستويين من النشاط العقلي، أحدهما شعوري والآخر لاشعوري، على هذا الأساس ميز بين ثلاث أقسام للنفس وهي:

1. الذات: ويمثل الجانب اللاشعوري الذي يحتوي الطاقة (اللبيدو) وما تشمله من غرائز.
2. الأنا: ويمثل الجانب العقلي من النفس، أي ما يجعل الفرد واعيا لسلوكه ومتحكما فيه.
3. الأنا الأعلى: وهو مجموعة القيم والمثل العليا التي يكتسبها الفرد نتيجة التنشئة الاجتماعية، والتي تمارس سلطة وضبط لسلوكاته في الحياة، وتمثل (الضمير).

لقد دعمت هذه المعطيات ملاحظات فرويد وأبحاثه، فأرجع الجريمة لأسباب نفسية لدى الفرد المجرم مردها اختلالات واضطرابات في جوانب حياته الداخلية، تتطور إلى مكبوتات وعقد تمارس نوعا من الضغط النفسي على المجرم فيسعى الى التخلص منه بشتى الطرق والوسائل والتي قد تنتهي به إلى الوقوع في دائرة الانحراف والجريمة.

ويؤكد فرويد على أهمية الدوافع اللاشعورية والصراعات العقلية المكبوتة في حدوث الجريمة، فالرغبة المكبوتة قد يشبعها عن طريق نشاط بديل او محرم، كذلك فإن الشعور بالنقص قد يعبر عنه بالتعويض، وذلك بالإقبال على أنواع شتى من السلوك الاجرامي (داود، ب س).

وقد أثارت العدوانية المفرطة انتباه المختصين في العيادة الإسقاطية والمحللين النفسانيين، وعلى رأسهم فرويد الذي تساءل حول كيفية تقدير كل هذه الكميات الهائلة من الطاقة التدميرية، وكيفية العمل معها، لتحويلها فيما بعد إلى كميات بسيطة تسمح بإنتاج الأفكار؟ وكان فرويد قد تحدث لأول مرة في كتابه "ثلاث محاولات في نظرية الجنس" عندما قام بوصف السادية. وبين أن العدوانية المفرطة مرادفة للسادية، وأن هدفها النهائي هو الاستحواذ على الموضوع الجنسي.

وفي عام 1915 رأى أن العدوان مرتبط بتدمير الموضوع وأنه مجرد نتيجة للحقد الذي يشعر به تجاه ذات الموضوع. ثم تحدث سنة 1921 عن طابع أولي للعدوانية عند تحليل الازدواجية العاطفية والاختلافات بين الأفراد اذ رأى أنه عندما توجد ضغينة نحو الأشخاص الذي نحبهم نتحدث عن ازدواجية المشاعر، وسببها هو مختلف العوامل التي يكون أصلها صراع المصالح التي تأتي من العلاقات الحميمية، بينما البغض الشديد والنفور من الغرباء المتواجدين بالجوار فيعزا إلى حب الذات النرجسية، الذي يطمح إلى توكيد الذات والتنديد بالاختلافات او الفروق بين الأفراد، ولهذا فهي تقوم بمحاولة إعادة التشكيلة للتخلص من الاختلافات.

وفي سنة 1930 بين فرويد أن الحياة ضمن السياق الثقافي تولد القلق والانشغال، مما قد يؤدي إلى المرض النفسي. وهو ينتقد الثقافة التي تجعل من السعادة هدفا للوجود الانساني، في نفس الوقت يقول: " إن الميل نحو العدوانية يصبح تهديدا بالنسبة للثقافة" لذا فهو يرى أن القريب ليس فقط مساعد وموضوع جنسي محتمل، إنما هو يعمل على إغوائه وبالتالي يدفعه للاعتداء عليه لإذلاله، للاستحواذ على ممتلكاته، لتعذيبه ولقتله". ويرى أن الكائن الإنساني له ميل فطري للإساءة وللعدوان والتدمير وبالتالي للوحشية.

بوجه عام فقد قدم فرويد اعتبارات متعلقة بمسلمة مفادها أن نزوة الموت هي ملازمة للمادة الحية التي أنتجتها نزوة العدوان، ويصل إلى فكرة أن العدوانية ضد الآخر تعود إلى طاقة تدميرية أولية سيئة، ومفيدة لتجنب التدمير الذاتي على أساس أن التدمير الذي لا يعبر عنه خارجيا لابد أن يمارس ضد الفرد نفسه. ويصبح تمييز العدوانية بين السواء والمرض عند إذ يخضع لنظرية السادو-مازوشيزم التي ترتكز على علاقة تسلط-خضوع.

ومن الناحية العيادية الإسقاطية يمكن مقاربة العدوانية من خلال الاستعانة بشبكة تحليل الديناميكية العاطفية لنينة روش 1990 والتي تبين نوعين من العدوانية: - العدوانية المرتبطة بالموضوع – وتلك غير المرتبطة بالموضوع. كما يميز الفعل العدواني عن التعرض للعدوانية. من جهة أخرى فإن كل إدراك للوحدة يكون ذا قيمة رمزية عدوانية (فمية، شرجية، قضيبية) يأخذ بعين الاعتبار فيما يطلق عليه اسم العدوانية الكامنة (فتيحة، 2013).

لقد كان فرويد على صواب إلى حد ما حين افترض وجود غريزة الدمار أو الطاناطوس (thanatos) ولكنه كان على خطأ حين قال بأن الطاناطوس هو الشر الملازم للطبيعة الإنسانية. وكان من الأجدر به

أن يقول إن الاستعدادات الفطرية لفعل الشر أو الخير تنجم عن الطريقة التي تمت بها برمجة الإنسان لكي يتشكل وعيه بذاته وتبرز سمات المزاج لديه وتنمو.

وعلى خلاف ما ذهب إليه فرويد، جاء يونغ بتصور جديد للاشعور يمكن من فهم كيفية نمو سمات الشخصية بشكل أفضل. حيث يرى أن اللاشعور يمكن أن يكون خطيرا للغاية، ولكنه ليس قبيحا في ذاته. ومع ذلك، يعتقد يونغ بأن اللاشعور ينطوي على عنصر يقف خلف معظم الشرور الموجودة في هذا العالم: يتعلق الأمر بما يسميه 'الظل'، والمقصود به تلك المنطقة المظلمة من الجزء الواعي في الشخصية. يدل مفهوم الظل عنده على الصفات الشخصية التي يرفض الأنا قبولها ويعمل جاهدا على كبتها. فعندما يقمع الفرد البعض من ميوله ورغباته، يحبسها الأنا في اللاشعور باعتبارها أسرارا مخجلة ومذلة. يستهلك هذا النوع من القمع الذاتي كمية هائلة من الطاقة النفسية، ويتسبب الإنهاك العاطفي-الوجداني للفرد في الكثير من الأذى والمتاعب. وكذلك يمكن أن يتسبب القمع في الكثير من المعاناة إذا شملت منطقة الظل بعض الصفات الإيجابية التي لم تجد الطريق للإفصاح عن نفسها كالقدرة على التعبير عن مشاعر المسرة والمحبة والقدرة على التفكير والإبداع).

إلا أن أكثر أنواع الشر خطورة هي تلك التي ترتبط بالإسقاط بوصفه آلية دفاعية. فخلال عملية الإسقاط يتم استبعاد الخصائص المرفوضة التي تشكل منطقة الظل خارج دائرة الأنا وإلحاقها بالغير. وهكذا يسقط الأنا مشاعر الحقد والغيرة والأنانية على شخص ليجعل منه عدوه اللدود. تتحقق عملية الإسقاط هذه بطريقة لاشعورية وتؤدي على الفور إلى العصف بالقيمة الأخلاقية للشخص البريء المستهدف، ومن ثمة، يستباح كل شيء لديه، حيث يعتقد صاحب النزعة الإسقاطية بأن الضحية تستحق الأذى الذي تتعرض له والشر الذي يصيبها. ويمكن أن يأخذ هذا العدوان شكل عنف رمزي أو جسدي يتدرج من التعذيب إلى التصفية العرقية مرورا بالاغتيال والقتل.

ويلعب الظل في نظر يونغ دور التعويض ودور المكمل بالنسبة للشخص: فإذا نظر المرء إلى نفسه على أنه شخص 'جيد'، اعتبر الظل شريرا؛ وإذا تم إسقاط هذا الظل الشرير على الآخرين اعتبروا أعداء، ويتم تبرير الأذى الذي يلحقهم من جراء ذلك تبريرا واعيا؛ حيث يقوم الأنا بتأويل الشر الذي يلحق بهم بطريقة ماكرة ليقنع نفسه بأنهم يستحقون ما يتعرضون له من مصائب. وبهذه الطريقة يصبح الشر بوصفه الأذى غير المستحق خيرا، أي عقابا مستحقا. وهذا ما يجعل الإسقاط بوصفه آلية دفاعية ينتج خطابا أخلاقيا مزدوجا.

وتجدر الإشارة إلى أن أطروحة يونغ التي تقول بأن الظل مصدر أساسي من مصادر الشر لا تتنافى مع الأطروحة القائلة بأن القدرة على فعل الشر تنمو بموازاة عملية تشكل وتنامي الوعي بالذات لدى الفرد. ذلك لأن الظل نفسه هو نتاج تشكل وتنامي البعد الواعي من الشخصية؛ فهو يمثل، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، صفات الشخصية التي لا يقبل الفرد حضورها على مستوى الوعي. ولما كان الوعي يتضايق من استقرارها فيه، يعمل الأنا على كبتها وحبسها في غياهب اللاشعور حيث تأخذ شكل نظام هولامي من الظلال المخيمة على جزء كبير من وجوده.

وإلى جانب الإسقاط غير الواعي للظل بوصفه مصدر الشر، يكتسب الفرد من خلال التنشئة الاجتماعية غير السليمة في الأسر المختلة شخصية تتسم ببعض الصفات الشريرة. ومن هنا يمكن القول بأن السبب الرئيسي للشر يكمن، أولا وقبل كل شيء، في نظام الأنا المكتسب، لا في منطقة الظل. يمكن القول بعبارة أخرى، إن الفرد يميل، في ظل ظروف معينة، إلى إضفاء معنى خاص على ذاته، وإلى تشكيل البنية الواعية من شخصيته بشكل غير سليم وفاسد؛ وتنشأ عن هذه العمليات سمات المزاج المضرة به وبغيره. كيف يحصل ذلك إذن؟

يكمن الجواب، بكل بساطة، في أن نمو الشخصية هو نتاج التنشئة الاجتماعية والتثاقف: فمن خلال التنشئة الاجتماعية يستبطن الطفل عناصر الثقافة التي تميز المحيط الذي يعيش فيه (أنماط السلوك، النظرة إلى العالم، القيم والمعايير، التوقعات، البنيات اللغوية والأيديولوجية، الخ) مما يؤدي إلى تشكل شخصيته وصورته عن ذاته. وإذا كانت العناصر الثقافية المستبطنة من النوع الفاسد، فإنه من المحتمل جدا أن تكون سمات المزاج المترتبة عنها لدى الطفل من النوع الذي يحث على فعل الشر. فإذا تلقى الطفل تنشئته داخل أسرة مختلة ومفككة الأوصال أو في بيئة اجتماعية تكاد تكون فيها ظواهر الحقد والجشع والأنانية والعنف أمورا طبيعية يشجع عليها المجتمع، حيث يسمح الناس لأنفسهم بالتعبير عن مواقف عنصرية أو جنسانية، فإنه يتوقع أن يبني هذا الطفل نسقه الذاتي وفقا لهذه الصفات الضارة ويعمل على نشرها وإعادة إنتاجها. وسيكون الأنا الذي تشكل على هذا النحو قادرا على فعل الشر بشكل تلقائي وطبيعي مثلما يستنشق المرء الهواء: فهو لا يفعل إلا ما اعتاد الناس إتيانه. وعندما يصبح أبا أو معلما أو قائدا، فإنه سيشارك في عملية إعادة إنتاج نسق الثقافة الفاسدة الشريرة.

وإذا كانت التنشئة الاجتماعية الفاسدة تفرض نفسها بوصفها النموذج المعترف به على صعيد المجتمع، فإن ذلك لا يعني أنها قدر محتوم لا يمكن تفاديه؛ وإنما يرجع السبب في ذلك إلى وقوع

اختلال في نظام التواصل الذي تكمن وظيفته في نقل مشاعر التعاطف .empathy إن الاضطراب الذي يصيب عمليات التفاعل العاطفي-الوجداني تكون له عواقب وخيمة على السيرورة النمائية لدى الطفل. وأما ما يدل على غياب التعاطف في الأسرة، مثلا، فهو سوء معاملة الأطفال وإهمالهم. يصاب الطفل في هذه الظروف بصدمة قوية، ويميل من جراء ذلك إلى تشكيل صورة مزيفة عن ذاته ويشيد ما يمكن تسميته بالأنا المغلوطة؛ وتكون وظيفة الأنا المزيفة هي الحفاظ على البقاء في عالم يبدو للطفل خطيرا: فلكي يتمكن الطفل من التكيف مع قيم وآراء الآباء وأنماطهم السلوكية الخالية من روح التعاطف، يلجأ إلى الاستراتيجيات الدفاعية من أجل الحفاظ على البقاء، ويبني نسقه الذاتي المزيف.

ومن جهة أخرى، يؤدي فشل الآباء في التفاعل العاطفي مع أبنائهم إلى معاملتهم كما لو كانوا مجرد موضوعات أو مادة خام يمكنهم صياغتها وفقا لقيمهم ومعتقداتهم الخاصة ليجعلوا منهم صورة طبق الأصل لما كانت عليه طفولتهم البائسة المعذبة؛ ولا يتعاملون معهم البتة بوصفهم أشخاصا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي، ولا يولون أية أهمية لاحتياجاتهم الخاصة.

يصبح حب الوالدين لأبنائهم في السياق الخالي من روح التعاطف حبا مشروطا: فلكي يحظى الطفل بحب الوالدين له واعترافهما به يلزمه أن يستجيب لتوقعاتهما. ومع مرور الوقت يكتسب الطفل أساليب التعلم والتفكير التي تمكنه من انتزاع ما يحتاج إليه من والديه، وينتهي به الأمر إلى استبطان الشروط التي يفرضانها عليه؛ وبإدماجه لهذه الشروط ضمن نسقه الذاتي، تميل هذه الأخيرة إلى التحقق في شكل سمات الشخصية التي لا تطمح إلى ما هو أكثر من الحفاظ على البقاء. ولتفادي هذا المصير المأساوي، يتعين أن يكون حب الآباء لأبنائهم حبا غير مشروط وأن يكون اعترافهم بهم غير مشروط أيضا، وهذا ما يطلق عليه روجرز Rogers اسم 'الاعتبار الإيجابي غير المشروط'. وبالتالي، فإنه لا يمكن للطفل أن يشيد نسقه الذاتي الحقيقي إلا إذا كان المناخ الاجتماعي الذي يعيش فيه مفعما بمشاعر التعاطف (أحمد، 2011).

4 المقاربة النفسية الإجتماعية للجريمة والسلوك الإجرامي:

هناك عدة تفسيرات نفسية إجتماعية أخرى حاولت تفسير السلوك الإجرامي يمكن أن تمد موضوع مداخلتنا بنقاط تثري هذا الطرح وتعمق بعد نظرته وهي كما وردت عن (قاسم، 2010).

1.4 نظريات الدافعية:

تذهب هذه النظريات إلى القول بأن العدوان ينجم عن التثبيط أو الاحباط. فاذا جرى منع الكائن من تحقيق اهدافه في الإشباع كإشباع دافع الجوع مثلا"، أدى ذلك الى حالة تثبيط أو احباط، ينجم عنها بالتباعية دافع عدواني يظهر على شكل سلوك عدواني.. العراك مثلا". ويصح الشيء نفسه عن الانسان بحسب هذه النظرية. فقد يريد الانسان شيئا" ماديا" أو معنويا" فيقف أحدهم في طريق تحقيق تلك الرغبة فيحدث لديه احباط ينشأ عنه دافع عدواني قد يتطور الى ارتكاب جريمة.

وبوضوح أكثر: ان كل احباط يفضي الى عدوان، وكل عدوان يسبقه احباط، وان الانسان يكون اشد ضراوة من الوحش عندما يتعرض الى الاحباط، أي عندما يعاق أو يحرم من تحقيق اهداف أو اشباع حاجات يراها مشروعة مصحوبة بمشاعر الحرمان النفسي والنيل من الاعتبار الاجتماعي، لاسيما حين يدرك انه أو جماعته يحصل على اقل من استحقاقه، أو ان جماعته تحصل اقل مما تحصل عليه الجماعات الأخرى.. ولكم ان تتذكروا ما جرى في العراق بين 2006 – 2008.

2.4 نظريات التعلم الاجتماعي:

تقول هذه النظريات ان العدوان ينجم عن التعلم عن طريق المشاهدة وتعزيز هذا العدوان. بمعنى ان المرء يتعلم العدوان من مشاهدة غيره يمارس العدوان، ويحصل على اثابه مادية أو معنوية لدى قيامه بالعدوان. والإثابة قد تكون معنوية، كأن يصفه افراد عصابته بأنه (بطل، شجاع، جريء، أخ إخوته...) فيصبح العدوان صفة ثابته في سلوكه. وقد تكون المكافأة مادية كالاستيلاء على مبلغ ضخم ينقل صاحبه من الحضيض الى القمة. وهذا يعني أن التعزيز الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من أصحابه، والتعزيز المادي وإشباع حاجاته، لاسيما الغريزية منها. يشجع آخر لديه الاستعداد للقيام بالسلوك الإجرامي أو الإنحرافي.

3.4 نظرية إنعدام المعايير:

يتفق العلماء الاجتماعيون على ان عدم العدالة الموجودة في النظام الاجتماعي هو العامل الحاسم في نشوء وتطور السلوك الاجرامي. وقد طرحوا نظرية (الانوميا) التي تعني التعبير عن الاحساس بانعدام المعايير. ويرون أن انعدام العدالة إذا ساد في المجتمع فأنه يخلق جماعات مرفهّة وأخرى محرومة، فيظهر من بين هذه الجماعات المحرومة أفراد يأخذون حقهم وحق جماعاتهم بأيديهم. من ضمنها تبنيهم للسلوك الإجرامي مبررين أن النظام الذي لا يكون عادلا يحق للمحرومين تحقيق العدالة فيه بطريقتهم الخاصة.

و لابد أن لكل هذه الاتجاهات النظرية قدرا من الصواب لاسيما إذا ما تظافرت عناصرها المحركة للسلوك الإجرامي، حيث أن إعاقة إشباع الفرد للحاجات التي يعتبرها ويدركها على أنها ضرورية بالنسبة لوجوده وكينونته مضافة إلى إحساسه الفعلي بضرورتها، مع توافر نماذج وفرص وتعزيزات لارتكاب السلوك الإجرامي في المحيط الأسري والاجتماعي وخاصة الذي يشكل مرجعية بالنسبة للفرد من جهة، مجتمعة مع تصورات أو حقائق واقعية تنم وتوحي بفقدان المعيار الإجتماعي من قوانين وقيم ومبادئ تضمن الإشباع للأفراد أو إدراكا بحصول الإشباع لديهم، من شأنه أن يؤدي بطرق شتى إلى الوقوع في براثم الجريمة أو السلوك الإجرامي من جهة أخرى. حيث قد ينزع بعض المجرمين أو العصابات الإجرامية إلى وضع معايير أو مبررات ومصوغات لتبرير سلوكه الإجرامي.

5 توظيفات الطاقة النفسية لمرتكبي وذوي الإستعداد للجريمة:

لابد هنا من وقفة عند النظرية الاقتصادية التحليلية النفسية لتوظيف الطاقة كي نلقي مزيدا من الضوء على الموضوع.

قدم فرويد في دراسته للحياة النفسية ثلاث نظريات تتكامل فيما بينها: الأولى هي النظرية الموقعية التي تصور الجهاز النفسي علة شكل بنية متكونة من أركان ثلاث متفاعلة هي الأنا والأنا الأعلى والهو، وهي نظرية معروفة في الأدبيات. والنظرية الثانية هي النظرية الاقتصادية التي تدرس توزيع وتوظيف الطاقة النفسية، وأخصها النزوتان الكبيرتان اللتان تمثلانها: وهما الجنس والعدوان، أو الحياة والموت، نزوة الحياة هي مصدر كل طاقات الحب والعاطفة والتواصل والعلاقة والبناء والنماء. أما نزوة الموت العدوان فهي مصدر كل طاقات الصراع والعنف والانفصال والتدمير وصولا الى الفناء. أما النظرية الثالثة فهي معروفة جدا بدورها وهي النظرية الدينامية التي تدرس التفاعل بين أركان الجهاز النفسي من ناحية، والتفاعل مع العالم من ناحية ثانية، ومختلف آليات الدفاع النفسي ضد القلق الداخلي، أو الخطر الخارجي.

ترى النظرية الاقتصادية أن كلا من طاقتي الحب الحياة والجنس أو العدوان قابلتان للتوظيف في مختلف الموضوعات، أو في الذات.

توظف طاقة الحب في العلاقات العاطفية على اختلافها، كما يمكن أن توظف في مختلف الأهداف الحياتية الكبرى ذات الطابع البنائي الإنجازي. وتوظف كذلك في المبادئ والعقائد والانتماء على شكل عطاء وتضحية. وتوظف طاقة الحب في الذات كذلك على شكل حب الذات

وتقديرها ورعايتها. وقد يتضخم هذا التوظيف البنائي متخذا شكلا نرجسيا (المحبة المفرطة للذات والافتتان بها).

كذلك هو شأن طاقة العدوان. فهي قد توظف في مختلف الموضوعات الخارجية متخذة مختلف ألوان الصراع والعنف الذي ينصب على الآخر ملحقا الأذى به وبمصالحه، وصولا الى حد القضاء عليه، كما قد ينصب على الموضوعات المادية على شكل مختلف نزعات التدمير. وقد يتحول توظيف العدوان إلى الذات فيتخذ عندها مختلف أشكال إنزال الأذى بها: من تحقير وتبخيس وتفشيل وتأثيم وعقاب وصولا الى الانتحار.

توظيف الطاقة ليس ثابتا، بل هو شأن اي توظيف آخر قابل للزيادة والنقصان، حيث تتفاوت درجة توظيف الحب مثلا من شخص إلى آخر، كذلك فإن التوظيف قابل لأن يسحب من شخص ويحول إلى آخر بديل، من مثل تحويل العواطف الانسانية. أو هو يسحب من الآخر ويوظف في الذات. وكذلك الأمر بالنسبة لتوظيف طاقة العدوان.

هذه الأخيرة أي طاقة العدوان المتأصلة في الذات الإنسانية أساسا تبرز مثلها مثل طاقة الحب ويتطور إستعداد الفرد للنمو أو التدمير من خلال تطور تعاقب وتراكم خبرات تفاعله مع المحيط في إطار عمليات التنشئة والتطبيع الإجتماعيين ونتاجات هذا التفاعل الذي يبدأ في التأسيس لتركيبة نفسية وشخصية معينة إبتداءا من خبرات التفاعل الأولى والأولية ونتاجاتها في العلاقة مع الوالدين (الثنائية: أم-طفل) و (الثلاثية: أم-طفل-أب). والتي تؤدي فيها العلاقة بين الوالدين فيما بينهما (العلاقة الزواجية-الأسرية) وتفاعل الطفل مع خبرات ونتاجات هذه العلاقة، تؤدي دورا قاعديا في تشكيل الإستعداد النفسي للتعامل بعدوانية إما مع الذات احتقارا وازدراءا وصولا إلى الرغبة في الإزاحة والإقصاء الكلي بالإنتحار، وإما تجاه الآخرين كشكل من أشكال الإنتقام وإشفاء الغليل المحموم وصولا إلى الإزهاق ولربما التدرج في درجات التلذذ والإستمتاع بتعذيب الآخر وإفنائه.

فقد بينت الكثير من الدراسات النفسية والاجتماعية والإحصائية وغيرها الإرتباط القوي أو على أقل تقدير الواضح بين العلاقات الزواجية والوالدية والأسرية السيئة مع الإجرام والسلوك الإجرامي وحتى العود للجريمة لدى أبناء الأسر والعلاقات الصراعية والمنفكة، ولاسيما إذا كانت هذه الحالات مزمنة في العلاقات التي ينشأ الفرد ضمنها ويستقي منها خبراته الأولية للتفاعل، التي

تشكل بدورها جوانبه البيشخصية التي ينطلق منها للتفاعل في مختلف المواقف الإجتماعية الأخرى.

6. الصراع في العلاقات الوالدية وبروز توظيفات طاقة العدوان والتدمير:

تنطلق فكرة هذه الورقة العلمية من إفتراض مفاده أن الجريمة بما في ذلك جريمة القتل إمكانية تنبثق عن نمط من أنماط نمو الشخصية مرتبط بالتنشئة الاجتماعية غير السليمة في الأسر المختلة. حيث يتعرض الأفراد في الجماعات التي يفترض أن تكون مرجعية صحية للطفل كي ينمو نموا سليما سويا فاعلا ومنتجا بإيجابية داخل المجتمع وخاصة من هذه الجماعات "الأسرة" بشكل أول وخاص وقاعدي المنظمة بشكل سيء لتنشئة اجتماعية غير سليمة تتسبب في بزوغ مشاعر القرف والضغينة وانتشارها على نطاق واسع. ويميل النزوع إلى الشر في ظل المناخ الأسري السلبي إلى الترسخ في النفوس ليصبح جزءا لا يتجزأ من استعدادات الشخصية، ثم يأخذ بعد ذلك أبعادا اجتماعية وسياسية من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي كما بينت هذا عديد الدراسات والاتجاهات النظرية والفكرية لعل من بينها ما فصل فيه جان جاك روسو في كتابه "إيميل" كما أشار إلى هذا (أحمد، 2011).

والحقيقة أن الآثار الناتجة عن حالة الصراعات الزواجية والأسرية وانشحان المناخ الأسري بالأزمات والصراعات واستنزاف طاقة الحب متعددة فيما يتعلق بالأطفال وصحتهم النفسية ونموهم النفسي والشخصي. يتمثل أحد السيناريوهات الأكثر شيوعا في إدارة كل من الزوجين الظهر للحياة الزواجية والأسرية، والانصراف الى اهتماماته ويوكل أمر الطفل الى شخص آخر لتربيته، ولقد أصبحت الآثار الناجمة عن هذه الحالة معروفة على الصعد العاطفية والعقلية واللغوية والاجتماعية والانتمائية من خلال الأبحاث الكثيرة عن الموضوع، وهي في جلها لها انعكاسات سلبية او حتى المعوقة على صحة الأبناء النفسية من الناحية النمائية والانتمائية وخصوصا اذا تغير الشخص البديل باستمرار، وتعرض الطفل في كل فترة الى خبرة علائقية مع شخص آخر غريب ومختلف في لغته وتكوينه النفسي والثقافي ومستواه العلمي والذهني. وقد يقتصر دور الأهل في هذه الحالة وأمثالها على التعويض عن تراخي رعايتهم لأبنائهم وتوفير الحب والصلات الوثيقة والمرجعيات الراشدة المتينة لهم، في إغداق الرشاوي المادية لشراء رضا الأبناء وهو ما قد يفسد هؤلاء بالطبع على صعيد التربية القيمية والمعيارية كما بين هذا بالتفصيل (مصطفى، 2010)، حيث تتحول الروابط الانسانية المتينة الى مجرد منافع مادية.

ويتمثل السيناريو الآخر في شيوع جو من التوتر النفسي في الاسرة حيث العدوانية مكظومة والصراع خفي (الحرب الباردة) والشكاوى والتبرم دائمين، والاتهامات المتبادلة بالتقصير تتفاوت بين التصريح والتلميح. يتم لعب الصراع من خلال السلوكات والاتجاهات واللغة غير اللفظية. يعيش الطفل في هذه الحالة في جو ملغوم من التهديد لطمأنينته ذلك أنه يلتقط بحساسيته المرهفة واقع الصراع والعدوانية الكامنة وراء الهدوء الظاهري بين الوالدين، وتتراكم في نفسه حالة القلق والضيق والاحباطات النفسية ومشاعر الغيض تجاه الوالدين، إلا أنه غير مسموح له بالظهور من خلال التعبير اللفظي الصريح والمواجهة. تلك هي الحالة التي تؤسس بامتياز للاضطرابات الانفعالية التي قد تصل حدا عصابيا: تسيطر على الطفل الكآبة والانطوائية، وفقدان الدافعية للدرس وانحصار الحيوية العامة وصولا الى الغرق في الهموم الذاتية واجترار الألم، ويتجلى ذلك بوضوح في المدرسة على شكل انسحاب وغرق في أحلام اليقظة ولا تخطيء العين الخبيرة ملاحظة المعاناة الصامتة التي يعيشها هذا الطفل.

وقد يتخذ الأمر في حالات أخرى طابع قيام الأحلاف والمعسكرات داخل الأسرة بين كل من الوالدين وعدد من الأطفال، وتدور عندها الحرب بين الزوجين من خلال الأولاد اي بالواسطة. كل طرف يضطهد وينبذ الأطفال حلفاء الطرف الآخر، وبالطبع يدفع الأطفال في كل الحالات الثمن الأكثر فداحة في توزنهم النفسي، طالما أنهم يتحولون الى مجرد أدوات للمعارك الزوجية في هذه الحرب الباردة بدل من الحصول على حقهم المشروع في الاعتراف والتقدير والمحبة والرعاية والمرجعية من كلا الوالدين. يتكرر على هذا الصعيد مثلا أن تقوم علاقة تملكية بين الأم وأحد أبنائها او بعضهم في حربها الباردة ضد الزوج. تقوم علاقة دمجية ذوبانية بينها وبين هذا أو ذاك من الأطفال مكونة عالما مغلقا على الأب الذي يستبعد تماما بمختلف وسائل تعبئة الأولاد ضده. هنا أيضا يتحول الطفل الى آداة لخدمة حاجة الأم الى التعويض عن الخسارة الوجودية التي تعانيها في علاقتها الزواجية بدل أن تكون العلاقة معه لذاته ولخدمة احتياجاته في التنشئة والرعاية. أبرز الآثار الملاحظة على هذه الوضعية الحيلولة دون نمو الطفل نحو الاستقلالية والانفتاح على الدنيا والناس، فقد تعمم الأم حربها مع الزوج على العالم مما يعيق تجربة الطفل في الانتماء الى الدنيا التي تتخذ طابع الغدر الذي يجب الحذر منه وتجنبه.

ويشير (مصطفى ، 2010) إلى أنه قد يصاحب الرشوة المادية رشوة أخرى أكثر خطرا منها تتمثل في التراخي المعياري تجاه سلوك الطفل، هذا التراخي مضافا الى الفراغ العاطفي الذي يعيشه الأبناء بسبب إدارة الزوجين الظهر للحياة الأسرية والواجبات الوالدية، يشكل الطريق الأقصر والأكثر شيوعا لجنوح

الأبناء على الصعيد المعياري (الانغماس في حياة الهو)، الجري وراء إثارات اللحظة، إدارة الظهر لإعداد المستقبل (الدراسة خصوصا)، إغراءات الصحبة العابثة، إغراءات الانخراط في المغامرات تجربة المخذرات وأخطار الادمان عليها، إغراءات البحث عن التعويض عن الفراغ العاطفي في المغامرات الجنسية غير محسوبة العواقب.

وهكذا يملأ الأطفال، حيث يشبعون فراغهم العاطفي في الأسرة من خلال الاقدام على مختلف المغامرات غير المحصنة للتعامل معها ومع آثارها، التي قد تلحق أكبر الأذى بتوازنهم النفسي وتكيفهم الاجتماعي ونموهم المستقبلي، فالحب والانتماء حين يفتقدان في الأسرة لا يمكن أن يظل مكانهما شاغرا، بل هما يملآن ببدائل تعويضية هي أبعد ما تكون عن الصحة النفسية.

أما في حالة التصدع الصريح (الحرب المفتوحة)، فيتصف الجو الأسري في هذه الحالة عادة بسيادة العنف والتهديد المتبادل الذي ينعكس على الأطفال في المقام الأول على شكل فقدان للشعور القاعدي بالأمن، ويبين هذا التصدع عجزا عن ادارة الرباط الزواجي بشكل معقول من التوافق والمرونة والتسويات الضرورية لاستمرار العلاقة، ويظهر التباين الذي سرعان ما يتفاقم لحد التناقض بسرعة

في كل الأحوال يكون الأطفال هم أكثر ضحايا التصدع الصريح تضررا، وذلك على عدة صعد.

يمثل جو التوتر النفسي والصراعات المفتوحة وما تتسم به من غلبة للعنف تهديدا جديا للطمأنينة القاعدية للنمو المعافى للفرد. وحول هذه الفكرة يرى (حجازي، 2010) أن الطفل في هذه الوضعية الصراعية الوالدية ينشأ في عالم من التهديد مما يفاقم مشاعر انعدام الطمأنينة لديه ويصعد من مستوى القلق متعدد الألوان: قلق العدوان وإلحاق الأذى بتكامله الجسدي-النفسي (مما يشكل حالة فعلية بالطبع)، قلق الهجر المصاحب للتسيب والاهمال الذي يتعرض له، قلق تفكك الأسرة بالانفصال بين الوالدين، وما قد يحمله من أخطار الضياع، حالة القلق هذه التي تجد لها تغذية دائمة من خلال دوام الصراعات وتكرار العنف تولد حالات من الانكسار النفسي وفقدان الثقة بالنفس والامكانات، والعيش في حالة من التعرض للتهديد، إلا أن الغالب على حالات التصدع الصريح أن تؤدي الى ردود فعل دفاعية ضد القلق تتخذ طابع العنف والخشونة وهو ما يعرف بآلية جلد التمساح، حيث يتحصن الطفل ضد ما يعصف به من قلق بتنمية قناع من الخشونة والقسوة والفضاضة، وتساعد النمذجة على تنمية هذه الآلية الدفاعية، فهو يتخذ له من عنف الأب او من عنف الاخوة الكبار نموذجا يحتذيه في سلوكه وردود فعله ومشاعره، إنه يتمثل تلك النظرة عن الدنيا

التي يوجهها قانون القوة: الغلبة للأقوى، وال|أقوياء يسيطرون على الضعفاء ولذلك فإنه يميل الى السلوك العدواني بمقدار تقدم نموه الجسدي واكتسابه لبعض مظاهر القدرة على الفعل ورد الفعل، ويجد له في ذلك قدوة جاهزة: الأب يضرب الزوجة والأبناء يتسلط عليهم، وهؤلاء يستجيبون بنفس السلوكات تجاه من هم اضعف منهم.

ومن النمذجة (احتذاء نماذج حية) قد يصل الأمر حدا من الرسوخ من خلال نشوء ظاهرة التماهي بالمعتدي: فمن كان ضحية الخوف يحاول أن يخيف من هم أضعف منه، ومن كان ضحية العدوان يمارس العدوان على من هم أقل قوة منه، وهكذا في حالة من قلب الأدوار. كل من النمذجة والتماهي بالمعتدي يعززان آلية دفاع (جلد التمساح) التي تتحول تدريجيا الى نوع من الطبع، وإلى أسلوب سائد في العلاقات والسلوك. وبذلك فقط يتمكن الناشئ من السيطرة على قلقه الدفين.

ويتكرر في مثل هذه الأسر المتصدعة التي تبدي عجزا ظاهرا عن ادارة حياتها نفسيا وماديا أن تكون الولادات كثيرة ومتتابعة دون حصول كل مولود على نصيبه الضروري من العلاقات الوثيقة والتعلق والحب والقبول والرعاية والتوجيه. ويترك أمر الإنجاب للحتمية البيولوجية وحدها في نوع من فقدان السيطرة على ادارة الوالدية او العجز عنها او عدم الرغبة فيها اصلا، ولذلك فان الغالب هو سيادة أسلوب حياة الارتجال في تدبير الحال، وحيث لا تتوفر للأطفال الرعاية والتوجيه الكافيين كما لا يتوفر لهم على الأغلب المجال الحيوي الملائم داخل المنزل فإنهم يتحولون الى الشارع كمجال حيوي بديل، وهو ما يحمل كل امكانيات التعرض لمختلف الأخطار الخلقية، وإغراءات الجنوح، خصوصا اذا كانوا يعيشون، كما يغلب على هذا النمط من الأسر في أحياء هامشية تتصف باللامعيارية الأخلاقية، وتراخي الضوابط السلوكية.

ونظرا لفقدان المجال الحيوي المطمئن في المنزل قد يتكرر ميل اليافعين من الأطفال الى التشرد والهروب والتعرض للعشرة السيئة التي تفتح أمامهم أبواب الولوج للمغامرات الجانحة. ويعزز هذا الاندفاع تلك الاحتقانات النفسية الداخلية التي يعانون منها، والتي تتطلب التفريج في سلوكات حركية او انتقام وتشفي لاستعادة شيء من التوازن الذاتي، وبالطبع فإن هذه الوضعية الوجودية بخصائصها التي أشرنا الى ملامحها الرئيسة لا تشجع البتة على التحصيل الدراسي فليس هناك منذ البدء مقومات بيئة مواتية لنمو دافعية التحصيل، والحياة المدرسية المنتظمة.

تسقط على كل واحد من هؤلاء الأطفال أزمات تصدع الرباط الزواجي الأسري والفشل الوجودي، في نوع من الوصمات التي تلصق بهم، فقد تسقط على الطفل دلالات التصدع والفشل من خلال اتهامه بأنه جلب النحس على الأسرة اذ صادفت ولادته مع تفجر الصراعات: لم تر الأم، او لم ير الأب

الخير منذ ولادته، ويحمل بالتالي وزر التصدع، ويجابه بالنبذ والعداء وسوء المعاملة، ويفتقد الاعتراف به. تؤدي هذه الوصمة الى انكساره النفسي في حالة من لعب الدور والمكانة التي اسقطت عليه، وقد يستجيب للوصمة والنبذ برد فعل عنيف يتخذ شكل الصراع المفتوح مع الوالدين إذا كان يتمتع بشيء من الحيوية الجسدية النفسية ويخوض معركته ضدهما أولا، ثم يعممها ضد الدنيا والناس فيما بعد: في الحي والأقارب والمدرسة وصولا الى الصدام مع القانون. يتمثل ما لحق به من عدوان الوصمة والنبذ ويكرر نفس المأساة خارج الأسرة في نوع من المعركة المفتوحة.

الكل بالنسبة إليه سواء، إنهم بدائل للأهل او متواطئون معهم. ومن خلال العدوان المضاد يحاول انتزاع الاعتراف بوجوده ولو كان الثمن مزيدا من العدوان عليه تصاعدا في المواقف العدائية تجاهه. إنه يلجأ الى آلية معروفة في هذه الحالة المتمثل بشعار: إذا لم تحبوني فانشغلوا بي" أي إذا لم تحبوني فسوف اتعبكم معي، من خلال مختلف التصرفات التي تحمل الازعاج والتكدير، وحتى الفضيحة للأهل وبذلك يجد سقطا من التوازن الوجودي الذي يشعره بالقوة والمتعة ويجعل وضعه محتملا وكل عقاب ينزل به يجابهه بآلية جلد التمساح ويتخذ منه دليلا على مقدار ما حل به من غبن أولي، ومبررا لإطلاق العنان لعدوانيته المضادة وردود فعله الجانحة (مصطفى، 2010).

هذا بالنسبة للأسر المتصارعة، ولنا أن نتصور في المقابل منها كيف يمكن أن ينشأ ويتطبع وينمو الفرد داخل أسر تحتوي في حد ذاتها على مختلف صور ونماذج الإنحراف والشذوذ السلوكي والأخلاقي أين تتخذ هذه الأشكال الأسرية معاييرا وقيما خاصة بها فتكون قاعدة لأنماط معينة من الشخصيات لعلها تلك النماذج الإجرامية التي تفتخر أو تلك التي لا تبدي أي أسف أو تحسر على ارتكابها لجرم القتل أو لربما لأكثر جرائم القتل عدوانية واستغراقا في أقصى درجاتها بمستوى لا تصعب ملاحظته على العوام فضلا على المتخصصين من الهدوء ولتلذذ النفسي.

7-خاتمة :

انطلاقا مما سبق عرضه من جوانب تحليلية نفسية اجتماعية لكيفيات التوظيف النفسي للطاقة من جهة والتوظيف النفسي للمعيار الإجتماعي بين الحالتين السوية والشاذة، هذه الأخيرة التي تعد الوضعية الخصبة لتوليد السلوك الإجرامي والجانح والمنحرف، نصل إلى تلخيص لجملة من الوضعيات التي يمثلها المعيار بالنسبة لمرتكب الجريمة على غرار الأفراد ذوي الإستعداد والقابلية لإرتكاب السلوك الإجرامي وهي:

- عدم وضوح المعيار بالنسبة لمرتكب الجريمة أو لذو الإستعداد لإرتكابها

- غياب أو عدم كفاية الخبرات الممارساتية والسلوكية والتدريبية والنماذج الفعلية والعملية الواقعية للتعاطي والتفاعل السوي مع المعيار وغياب أو تضاؤل فرص التماهي بشخصيات نموذجية

في الامتثال الإجتماعي بالنسبة لمرتكب الجريمة أو ذو الاستعداد لإرتكابها، مما يضائل من فرص التعلم القويمة ولا يساعد على تنامي النضج الإنفعالي والوعي بعواقب السلوك، الأمر الذي يمكن ملاحظته واكتشافه لدى هؤلاء الذين يبدون ندمهم وشدة وطأة سلوكهم المجرّم على حالتهم النفسية، بحيث ينزع بعضهم إلى رفض وضعه الجديد كمقترف جريمة مثلا أو نزوع بعضهم إلى محاولة إصلاح نفسه وسلوكه بإبدائه لحسن السلوك داخل المؤسسات العقابية او الإصلاحية، وميل بعضهم إلى إبداء توبته وإبداء مظاهر التدين....

-الحالة التي تكون فيها معاني ودلالات ومختلف أشكال و رموز التدمير هي المعيار المسيطر على سلوك المجرم أو ذو الاستعداد للجريمة، وهذه الحالة تنشأ في الوضعيات التي ينشأ فيها الأفراد في وسط أسري وإجتماعي يرى في العنف والاعتداء والاضطهاد هو مصدر اللذة و السعادة والراحة، حيث يتطبع الأفراد على هذه الممارسات الشاذة والعنيفة، ويصبح الاستحواذ على الآخر وممتلكاته وتصفيته هو مصدر التوازن النفسي، وهذا ما يوجد عادة في الأسر والجماعات المنحرفة التي اتخذت من الاعتداء والعنف معيارا للقوة والتوازن النفسي والحصول على الإشباع من خلال الاستحواذ، ولعل هذه الوضعية هي تجسيد لمشاهد جرائم القتل التي تتفاوت فيها درجات التوازن النفسي بين مرتكبيها من هؤلاء الذين لا يبدون تأسفا أو أي شعور بالذنب والقلق لارتكابهم الجريمة إلى هؤلاء الذين يصرحون ويبدون ارتياحهم ونشوتهم وتلذذهم بالجرم، هذه الوضعية الخطيرة التي تجعل من العنف معيارا للسلوك تمتد لتصل ببعض المجرمين أو ذوي الاستعداد لارتكابها إلى أن تشكل الضمير الذي يحرك سلوكهم، ولعل هذا ما يلاحظ على بعض أنماط المجرمين الذين يوصفون بأن لا ضمير لهم، والواقع ربما هو أن نمو الضمير عندهم يرتبط بتشبعهم بقيم العنف والتخريب، وأن تماهياتهم ترتبط أكثر فأكثر بشخصيات خرافية أو حقيقية تمتد أكثر فأكثر داخل مظاهر الوحشية والتعذيب والتنكيل.

واعتمادا على استخلاص هذه الوضعيات المتعددة والمتنوعة للوضع المعياري في سيكولوجيا المجرم وذوي الاستعداد لارتكاب الجريمة يمكن القول إن مثل هذا المقال يمكن أن تمثل منطلقا لمزيد من الدراسات التفصيلية التي يمكن أن تمد المتخصصين بمعلومات وأسس تمكنهم من وضع إستراتيجيات وقائية وعلاجية من شأنها أن تساعد الفرد والأسر والمؤسسات الإجتماعية ذات العلاقة بالتربية وكذا إعادة التربية والإصلاح على مواجهة هذه المعضلة النفسية الإجتماعية.

المراجع

-أغبال أحمد (4 فيفري 2011): مقاربة سيكولوجية (جذور الشر)

http://sophia.over-blog.com/article-66438168.html ,14:04,28/03/2018-

-حجازي مصطفى (2010.): الصحة النفسية (منظور دينامي تكاملي للنمو في البيت والمدرسة، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي.

-حسين صالح قاسم (2010): جرائم القتل (تحليل نفسي اجتماعي)، الحوار المتمدن، العدد 3154، بتاريخ 14 أكتوبر

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=231925, 14:04,28/03/20182010

-فضيلي فتيحة، (سبتمبر 2013.): أنماط السلوك الاجرامي في مرحلة الرشد وعلاقتها بالعدوانية لدى المساجين (دراسة مقارنة في ضوء اختبار روشاخ)، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مولود معمري –تيزي وزو- الجزائر، العدد 12.

معمر داود (ب س): ظاهرة الجريمة ونظرة بعض الشباب لها، قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الباجي مختار –عنابة-